إشكالية التراث عند نصر حامد أبو زيد

د. فتيحة زرداوي
قسم الفلسفة جامعة الجزائر 2

ملخـــــــص:

ناصر حامد أبو زيد من بين المفكرين الذين جمعوا بين الإحاطة بالتراث العربي الإسلامي وبين الفكر الغربي ومعرفتهما معرفة علمية ،خصوصا في مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية فضلا عن اهتمامه بقضايا وإشكاليات الواقع العربي المعاصر سياسيا وفكريا ،فقد شارك في حركة التنوير بهدف صياغة مشروع نهضوي عربي معاصر وهذا يظهر من خلال الدراسات التي قدمها في مجال نقد التراث العربي الإسلامي .

لقد اشتهر بمشروعه الفكري الطموح الذي يرتكز علي تأويل الفكر الديني ونقده باعتباره خطابا مثله مثل باقي الخطابات التاريخية الأخرى كالفلسفة والأدب. وما يمنح كتابات نصر حامد أبو زيد أهمية إضافية علاوة علي أهميتها الفكرية هي السجلات التي أثارتها والتي تتمثل في الصراع الفكري بين تيارين : تيار التنوير والتجديد ، وتيار التشبث بالماضي وبحكايات السلف ،لذلك أرسي عمله الفكري علي قاعدتين :

1- فهم التراث فهما نقديا لاعتقاده أن فهم التراث غير ممكن بطريقة تكرار مقولاته ووقائعه .

2- فهم النص الديني بغاياته وليس بحروفه-وفي هذا الحقل من المعرفة دعا أبو زيد إلي التحرر من سلطة النص .

لقد تأرجح الخطاب الفكري في عصرنا بين تيارات مختلفة تحاول تأصيل أفكارها من أجل تجاوز الأزمة الحضارية، منها من ينادي باعتناق الفكر الغربي كأساس منهجي علمي يساعد العقل العربي على تخطي أزماته الفكرية ونبذ التراث الذي أصبح في نظرهم قاصرا على احتواء الإشكاليات الفكرية الراهنة.

والاتجاه الثاني رفض هذا الفكر (الغربي) وحاول الرجوع إلى التراث باعتباره القاعدة الأساس التي من خلالها تستطيع الحفاظ على الهوية العربية. وهكذا انقسمت الساحة النقدية والفكرية إلى تيار علمي علماني وتيار سلفي يتجاذبان العقل العربي ويحاولان صياغة الخطاب الفكري العام صياغة إيديولوجية. وتحولت ثنائية التراث والحداثة أو الأصالة والمعاصرة إلى إشكالية دار حولها النقاش والجدل من طرف مفكرين وأدباء وكتاب، وطبعت هذه الإشكالية مناحى عديدة من الفكر العربي المعاصر، تمخضت عنها مواقف وذهنيات مختلفة ومتفاوتة، وإن كان التواصل مع التراث لا يعني التنكر للحداثة، كما أن الانتصار للحداثة لا يؤدي إلى إهمال التراث.

وقد سعى بعض مفكرينا في الوطن العربي أمثال " برهـــان غليـــون "، " طيب تزيني"، " طه عبد الرحمن "، " عبد الله العروى "، " محمد عابد الجابري "، " محمد أركون "، " نصر حامد أبو زيد" إلى الكشف عن التراث العربي الإسلامي عبر الحفر في طبقاته المعرفية وإخراج الإرث الثقافي من دائرة الاستهلاك والإجترارية، وحاولوا بالاعتماد على المنهج النقدي تحديد مواضيع الخلل في التعاطي مع التراث وتبيان مكامن القوة والإبداع فيه، حيث تحول نقد التراث من نقد المسائل والمقولات التراثية إلى فحص وتحليل النظام المعرفي الذي أنتج تلك المسائل والمقولات،... ومن مناقشة التصورات الدينية في التراث إلى مناقشة النظام الفكري العميق، أو الأنظمة الفكرية المنتجة للتصورات الدينية في التراث. مع الأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني بين الماضي والحاضر، وهذا هو الانعطاف النقدي الجديد الذي حصل مثلا مع " الجابري " و" محمد أركون ".

واقتضى الخوض في التراث من بعض دراسيه، التوقف عند كل ما أنتجه العقل العربي الإسلامي فلسفيا ودينيا، والنحت في أسسه وجذوره مع الالتفات إلى المسكوت عنه واللامفكر فيه.

ويعتبر " نصر حامد أبوزيد " من أبرز رواد الفكر الإسلامي المعاصر الذين جعلوا من العقل أداة لفهم وتأويل التراث. حيث قرأ التاريخ والتراث بمنهج عقلاني يدعو إلى التحرر من سلطة النصوص، وهي دعوة لإطلاق العقل الإنساني حرا يتجادل مع الطبيعة في مجال العلوم الطبيعية، ويتجادل مع الواقع الاجتماعي والإنساني في مجال العلوم الإنسانية والفنون والآداب، فهل تتصادم هذه الدعوة كما يقول حامد أبو زيد مع النصوص الدينية، إن هذه الدعوة لا تقوم على إلغاء الدين ولا النصوص الدينية بل تقوم على فهمها فهما علميا. [1]

فحامد أبو زيد حاول اختراق أسوار الممنوع والتاجو العقلي والثقافي في حياتنا العربية كما اشتغل بقراءة خطاب النهضة ونقده، قراءة علمية تستند على أسس منهجية واضحة أبرزها الألسنية والهرمنيو طبقا وعلم الاجتماع، والحرص على قراءة هذه النصوص من خلال البحث عن دلالتها دون أن يفرض رؤاه الإيديولوجية من خارجها. لذلك تصدى لكل مخالف لدور العقل والعلم والمعرفة، ولأعداء الإنسان والفكر للتحرري، وقوى التخلف الساعية إلى محاربة الأفكار النهضوية الحداثية المعاصرة، وتدمير التراث النقدمي.

لقد رفض نصر أبو زيد النظرة السكونية المتوارثة وكان يدعو إلى صياغة الفكر العربي عامة انطلاقا من خلخلة البنى المعرفية المتأصلة في الثقافة العربية، كما حاول بلورة نظرته الشمولية على أساس فكرة البحث، وصاغ التراث خاصة الديني صياغة جديدة باستخدام الآليات والمناهج العلمية.[2]

---

[1] – نصر حامد أبو زيد، **التفكير في زمن التكفير**، مكتبة مدبولي، ط2، 1995، ص 146.

[2] – نصر حامد أبوزيد، **النص، السلطة، الحقيقة**، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995، ص 20.

وبالتالي فقد أسس منظومة فكرية على نقد النصوص التراثية، والتي في رأيه غيبت العقل والوعي العلمي العربي وجعلت الثقافة العربية تختزل في آلية تفسير النصوص وشرحها حيث يقول " هكذا تحددت قوانين إنتاج المعرفة في الثقافة العربية على أساس سلطة النصوص، وأصبحت مهمة العقل العربي محصورة في توليد النصوص من نصوص سابقة. [1]

فإذا كنا لا نريد أن نتجاهل هذا التراث أو نسقطه جانبا فإننا بنفس القدر لا نستطيع أن نتقبله كما هو، بل علينا أن بعيد صياغته فنطرح عنه ما هو غير ملائم لعصرنا ونؤكد فيه الجوانب الايجابية ونحددها ونصوغها بلغة مناسبة لعصرنا، إنه التحديد الذي لا غنا عنه إذا كنا نريد أن نتجاوز أزمتنا الراهنة. [2]

وهذا أساس مشروعه النقدي الذي يركز فيه على نقطتين أساسيتين:

1- التعامل النقدي مع التراث

2- الالتفات إلى الراهن الذي سيطرت عليه الأصولية الدينية، وهذا ما جعل نصر حامد أبو زيد ينخرط في فضاء من الأسئلة المتعلقة بضرورة قراءة التراث قراءة لا تستلم للجاهز المعرفي، وأرجع سبب فشل النهضة العربية إلى غياب الوعي العلمي بالتراث وتعقد علاقتنا بالآخر بالإضافة إلى إهدار التاريخية من السياق الثقافي العام. فالتاريخية كمفهوم إجرائي حسب أبو زيد تستطيع أن تحرر الفكر العربي من سطوة التراث وشمولية الفكر الديني الذي اختزل العقل العربي في مفهوم ما ضوى سلبه إمكانية التطور والتقدم. [3]

وركز حامد أبو زيد في تأسيسه للتاريخانية على الفصل بين المعنى والمغزى، ورغم أن الكثير من نقاد نصر حامد أبو زيد يقرون بأن لها بعدا

---

[1] – نصر حامد أبو زيد، **النص، السلطة، الحقيقة**، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995 ص 20.

[2] – نصر حامد أبو زيد، **الخطاب الديني**، دار ابن سينا للنشر القاهرة، 1995، ص 209- 215.

[3] – نصر حامد أبو زيد، **النص السلطة والحقيقة**، ص 20

ماركسيا، إلا أن لا يتحدث في إطار نقده للنص أو تحليله له إلا عن ثنائية الثقافة واللغة حيث يقول: " إن تاريخية النصوص بمعنى أن دلالتها لا تنفك عن النظام اللغوي الثقافي الذي تعد جزءا منه ."[1]

وقد أشار المفكر الجزائري "محمد أركون " إلى أن مصطلح التاريخية يتعلق بصياغة علمية مستخدمة خصوصا من قبل الفلاسفة الوجوديين للإشارة إلى ما يمتلكه الإنسان في إنتاج سلسلة من الأحداث الثقافية التي تشكل بمجموعها مصير البشرية. [2]

تناول نصر حامد أبو زيد فكرة تاريخية النصر الديني وانتمائه إلى بيئة ثقافية محددة، ولم ينكر مصدر النص الإلهي المقدس وإنما أشار إلى ذلك وأثبته وأكده في الكثير من مؤلفاته وخاصة كتاب " النص، السلطة، الحقيقية " ويشير إلى ذلك بقوله: " يجب أن نستعيد السياق التاريخي لنزول القرآن من أجل أن نتفهم مستويات المعني وآفاق الدلالة فنستطيع التمييز في مجال الأحكام والتشريعات بين مستويات لم ينتبه إليها أسلافنا. [3]

وفي قراءته للخطاب الديني يميز نصر حامد أبوزيد بين الفكر الديني والدين، فالدين كما يقول: " هو مجموعة النصوص المقدسة الثابتة تاريخيا، في حين أن الفكر الديني هو الاجتهادات البشرية لفهم هذه النصوص وهذه الاجتهادات [4] لذلك لا بد أن ينتبه القارئ لكتابات نصر حامد أبو زيد أن ينتبه القارئ لكتابات نصر حامد أبوزيد والمستندة إلى ما يسمى بالقراءة التأويلية للخطاب الديني إلى هذه النقطة وهي تفرقته بين الدين والفكر الديني.

إن من يقرأ كتب أبو زيد خاصة " مفهوم النص "، " دراسة في علوم القرآن " ونقد الخطاب الديني " " سيتبين له أن جميع الاجتهادات التي تضمنتها هذه

---

(1) – نصر حامد أبو زيد، **الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية**، القاهر دار ابن سينا للنشر 1992، ص 8.

(2) – محمد أركون، **الفكر الإسلامي**، قراءة علمية ترجمة هاشم صالح بيروت مركز الإنماء القومي، 1987، ص 116.

(3) – ناصر حامد أبو زيد، **دوائر الخوف**، قراءة في خطاب المرأة، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي ط4، 2004، ص 11.

(4) – نصر حامد أبو زيد، **نقد الخطاب الديني**، دار ابن سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص 185.

الكتب تأتي في إطار النقد والاستشراف العلمي الذي يتجاوز كل تقليد، وحاول من خلال منهجه العقلاني بالإضافة إلى المخزون الفلسفي العربي الإسلامي مقاربة النصوص التراثية بالواقع العربي، بوعي نقدي وانفتاح واسع وتأويل مختلف ومغاير لكل من سلقوه لأن العقبة الإبستمولوجية بين التراث والواقع هي غياب الوعي القادر على استنطاق التراث لتوليد نموذج يستوعب الواقع ويفعل فيه باتجاه المستقبل، ونحن لا نستطيع أن نعين الحلول من النص التراثي إلا إذا سبقنا ذلك بتعيين إشكاليات الواقع ومفرداته الجديدة. [1]

إن صاحب نقد الخطاب الديني أراد إيقاظ الوعي العربي الإسلامي من سباته الذي طال والذي كا يعتبر الدفاع عن الماضي من ثوابته حتى ولو كانت الحصيلة تزييف الحاضر وسد الطريق أمام المستقبل. [2]

فالتراث في خطاب أبو زيد يتم استيعابه في إطاره العام، ويجمع بين الفقه وعلم الأصول والبلاغة والفلسفة وعلم الكلام، وبالتالي فالمنهج الأمثل في دراسة التراث هو علم تحليل الخطاب.[3]

وهذا واضح في كل كتاباته وأعماله وخاصة نقد الخطاب الديني الذي يعتبر دراسة تقوم على تأمل فاحص وواع للتراث ومناقشة للاتجاهات الحديثة في توجيه الخطاب الديني على أساس الاعتراف بالدين بصفته جوهريا في أي مشروع للنهضة ولكن بعد فهمه وتأويله تأويلا علميا ينفى عن الفكر الديني ما علق به من خرافات واستبقاء ما تضمنه من عقلانية، كما دعى فيه كذلك إلى ربط الماضي بالحاضر لنستخلص من التراث ما يساعدنا على تحرر الفكر من التخلف ومواكبة الرقى الحضاري.

---

(1) – صلاح الجابري، النص والواقع، إشكالية علاقة أم منهج، مجلة المنطق الجديد العدد 9- 200، مؤسسة الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت، ص 86.

(2) – نصر حامد أبو زيد، التفكير في زمن التفكير ضد الجهل والزيف والخديعة، مكتبة مدبولي ط2، 1995، ص 20.

(3) – نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص 28.

وتحليل الخطاب يتأسس عن طريق فهم النص أو هو مدخل لدراسة الثقافة العربية الإسلامية من وجهة نظر أبو زيد ومعرفة الطبيعة المزدوجة للنص، والتي تجمع بين الإلهي والبشري، الله سبحانه تعالى هو المتكلم لكن اللغة التي أوحى بها هي اللغة العربية. [1]

وهكذا يستحضر تحليل الخطاب اللغوي البعد التاريخي كمكون أساسي من مكونات الفهم العقلاني للتراث لأن الأمر هنا يتعلق بتاريخية المفاهيم التي تطرحها النصوص من خلال منطوقها [2]. باعتبار أن النصوص الدينية قد تأسست منذ تجسدت في التاريخ واللغة وأصبحت في رأيه تعبيرا عن واقع تاريخي محدد ومحكومة بجدلية الثبات والتغير.[3]

كما أن منهجية تحليل الخطاب اللغوي كمدخل لاستكشاف علامات التراث، تكشف لنا العلاقة بين النص الأصلي والنص الثانوي... فالنص الأصلي في التراص الإسلامي هو القرآن الكريم، والنصوص الثانوية هي شرح وبيان هذا النص الأصلي،[4] وعلى هذا الأساس يميز أبو زيد في دراساته بين ثلاث مستويات.

1- مستوى السياق التاريخي.

2- سياق القارئ أو الباحث المعاصر الذي يقرأ النص.

3- المغزى من النص- الناتج عن تفاعل السياقين السابقين. فأبو زيد يزاوج بين المناهج التقليدية في التراث الإسلامي وبين المناهج الغربية الحديثة والمعاصرة في فهم وتحليل نصوص التراث وتحليل الخطاب الديني وفي ذلك يقول: يعتمد منهج تحليل الخطاب على الإفادة من السميولوجيا والهرمنيوطيقا بالإضافة إلى اعتماده على الألسنة والأسلوبية. ولا يقوم هذا الاعتماد على

---

[1] نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص 48.

[2] نفس المرجع السابق ، ص 118

[3] نصر حامد أبو زيد، التفكير في زمن التكفير ، ص 134، 135.

[4] نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة والحقيقة، ص 8.

توظيف حرفي لمقولات تلك العلوم وقواعدها المنهجية بقدر ما يحاول الانطلاق من قراءة معاصرة للنصوص التراثية.[1]

فدراسة التراث دراسة نقدية عند أبو زيد ترتبط بمقولة التأويل، يعني أن إشكالية القراءة لا تقف عند حدود اكتشاف الدلالات في سياقها التاريخي الثقافي الفكري بل تتعدى ذلك إلى محاولة الوصول إلى المغزى المعاصر للنص التراثي في أي مجال معرفي[2] حتى يتم تحقيق الوعي العلمي للتراث بعيدا عن القراءات الإيديولوجية المغرضة.

وهكذا فالتأويلية التي فصدها أبو زيد هي المتقاطعة مع أفق الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر أي مع التاريخ والأنتربولوجيا وعلم الجمال وعلم الاجتماع. وقد تعدى ذلك إلى تأويله للقرآن والأحاديث النبوية.[3] وهذا ما عرف عند لبن عربي بفلسفة التأويل أو دراسة لتأويل القرآن.

لقد ارتبط مشروع قراءة التراث العربي الإسلامي في فكر أبو زيد بنظرية التأويل.

وتأويله حامد أبو زيد نوع من التأويلية الإنسانوية، التي تحاول تأسيس قراءة للنص المقدس أساسها الإنسان بوصفة معطى في الكون، حسب ما جاء عند هيدغر. ورغم أن أبو زيد لا يستخدم عبارة دازين التي استخدما هيدغر إلا أن مدلولها واضح في خطاباته.

والقراءة الإنسانوية هي التي تعتبر الإنسان غاية ومراكز لها ومشكلة التأويلات القرآنية في رأيه أنها فصلت النص عن الإنسان من حيث هو سياق التفاعلات الإنسانية الظرفية وبدأت تتعامل معه كما لو أنه مستقل عن السياق. وعندما وضعته خارج السياق نتجت معارك الاقتباسات ومنها بدأت التأويلات السلطوية أو ما يسميه سلطة النص. وبهذا المعنى يظل وفيا للهرمنيوطبقا الأولى

---

[1] نصر حامد أبو زيد، **إشكاليات القراءة وآليات التأويل**، المركز الثقافي العربي، ط 7-2005، ص 6.

[2] نفس المرجع، ص 177.

[3] نصر حامد أبو زيد، **النص، السلطة والحقيقة** ص 156.

عند " شلاير ماخر " " وديلتاني " التي تزعم إمكانية استعادة المعاني الأصلية للنص في حالة الإيفاء بشروط الدائرة الهيرمنوطبقية، غير أنه يوسع هذه الدائرة يفتح باب تأويلي آخر يسميه مغزى النص وهذا ما أشرنا إليه سابقا. وهذا لا يعني ترك المعاني القديمة بل قراءتها في محيطها النفسي من أجل البحث عن ما يتماشى والفكر المعاصر.

والنص في رأي أبي زيد هو منتج ثقافي خاضع للتفاعلات الخاصة به وهذه التفاعلات هي الحقائق الاجتماعية والظروف التاريخية التي شهدت ميلاد النص، ولا بد من التفريق بين هذين المستوين من أجل اختراق النص، ولا بد من التفريق بين هذين المستوين من أجل اختراق النص وفهمه. ولو انتقلنا لتحليل النص لحظة إنتاجه أو نزوله فإنه سيكون من السطحية لو فصلناه عن الثقافة المنتجة له. ولعل كل الانتقادات التي وجهت له هي بسبب ربطه بين الثقافة والنص. وقوله أن الجدل القرآني هو جدل أرضي- سماوي، بمعنى أن إشكالاته تحددت في الواقع قبل أن يتم نزوله، وهذا الربط لا يعني نفي المصدر الإلهي للقرآن كما وضح أبو زيد الدلالي الثقافي الذي أتى في سياقه. وإلا فإن النص لا يمكنه أن يقدم معانيه خارج الذهنية القائمة الواقع أن قراءة نصر حامد أبو زيد هي قراءة في إطار الدين نفسه لا بما يعلنه ويؤكده بأقواله وكتاباته فحسب بل بمضامينها ونتائجها ولهذا يقول أبو زيد في كتابه: " النص، السلطة، الحقيقة" إن الخطاب الذي يطرحه هذا الكتاب يعد في جانب منه تواصلا مع خطاب عصر النهضة في جانبه الديني ليس من " محمد عبده " حتى " محمد أحمد فضل الله " بل هو تواصل مع التراث في بعده الأعمق والمتمثل في الانجازات الاعتزالية والرشدية، وهو تواصل كذلك يمثل الامتداد النقدي لا لخطاب النهضة فقط بل للخطاب التراثي كذلك. [1]

[1] – نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة.

يمثل مشروع نصر حامد أبو زيد أحد المشاريع التي حملت على عاتقها العقلنة والعلمنة وقد أثرى الفكر العربي الحديث بجهوده وإسهاماته الفكرية والفلسفية والتي تميزت بجديتها وإلزامها الصدق والعلمية والمعرفة والنظرة النقدية.

ومن المؤلم أن الخلاف حول مشروع نصر حامد أبوزيد الفكري لم يتحول إلى سجال حضاري عقلاني موضوعي يثري الفكر العربي المعاصر بل أجهض هذا السجال واقتصر على اتهام وإدانة هذا المشروع بالتكفير، والتحريم.

إن بروز أي مشروع فكري أو سياسي يفسر حالة تراث الأمة البائسة ومقوماتها المعرفية وينتقد المعالطات الخطيرة التي تسوقها قوى الخرافة والجهل يجد من يتصدى له بشتى الوسائل مشروعة كانت أو مخترعة وهذا ما ناله المفكر الناقد " ناصر جامد أبو زيد " خاصة عندما قدم بحثه " نقد الخطاب الديني " وهكذا تخرج ممارسة الاختلاف الفكري من دائرة البحث العلمي والمناقشة وحرية الرأي والاجتهاد إلى دائرة الحكم القضائي.

المراجـــــع:

1- نصر حامد أبو زيد، التفكير في زمن التكفير، مكتبة مدبولي، ط2، 1995.

2 – نصر حامد أبوزيد، النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995.

3- نصر حامد أبو زيد، الخطاب الديني، دار ابن سينا للنشر القاهرة، 1995.

4 – نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية، القاهر دار ابن سينا للنشر 1992.

5 – محمد أركون، الفكر الإسلامي، قراءة علمية ترجمة هاشم صالح بيروت مركز الإنماء القومي، 1987.

6- ناصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي ط4، 2004.

7- نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار ابن سينا للنشر، القاهرة، 1995.

8 – صلاح الجابري، النص والواقع، إشكالية علاقة أم منهج، مجلة المنطق الجديد العدد 9– 200، مؤسسة الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت.

9 – نصر حامد أبو زيد، التفكير في زمن التفكير ضد الجهل والزيف والخديعة، مكتبة مدبولي ط2، 1995.

10– نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط 7–2005.